اسباب الخيالات

ذكرنا في الجزء الماضي كلاماً وجيزاً عن الخيالات وامثلة مختلفة لها لكي يتضح للقارىء حقيقة ما نريده بها ووعدنا ان نذكر تعليلها العلمي في هذا الجزء وانجازاً لذلك نقول

اذا رأيت شجرةً مغروسة امامك فالشعور الذي تشعر بهِ في ذهنك ناتج عن وقوع اشعة النور على الشجرة وانعكاسها عنها الى عينك ودخولها من الحدقة وتقاطعها في بلورية العين ورسمها صورة تلك الشجرة على الشبكية التي في مؤخر العين وتأثر العصب البصري بهذهِ الصورة وانتقال هذا التأثر الى عقدة خاصة في الدماغ تشعر بهِ فترى الصورة في الخارج . فاذا زال شرط من هذهِ الشروط كلها لم يمكنك ان ترى الشجرة. فان كنتَ في ظلام دامس لا شمس ولا قمر ولا نور من الكواكب ولا من المصابيح لم ترَ الشجرة واذا اغمضتَ عينك حتى لا يدخلها النور لم ترَ الشجرة واذا اظلمت رطوبات العين بمرض لم ترَ الشجرة واذا ايفت الشبكية او العصب البصري او العقدة البصرية لم ترَ الشجرة . وعليهِ فالشجرة التي تراها بعينك صورة طبعها النور على الشبكية وانتقل تأثيرها الى الدماغ وهذا هو الشعور بالمرئيات

كذلك اذا سمعتَ صوتاً فالشعور الذي تشعر بهِ ناتج عن اهتزاز دقائق الجسم الذي صات وانتقال هذا الاهتزاز بالهواء مثلاً الى طبلة الاذن فتهتز بهِ و ينتقل هذا الاهتزاز في الاذن الباطنة الى اعصاب السمع ومنها الى الدماغ حيث مركز الشعور بالاصوات فاذا زال شرط من هذهِ الشروط لم تسمع صوتاً كما اذا زال الهواء الموصل بين الجسم الصائت والاذن ولم يكن هناك موصل غيرهُ او ايفت الاذن او اعصابها او مركز السمع في الدماغ . وقس على ذلك سائر ما تشعر بهِ من المشمومات والملموسات والمذوقات فاننا ندرك وجودها في الخارج من تأثير ينتقل منها إلى مراكز خصوصية في دماغنا

لكن صور المنظورات وروائح المشمومات وطعوم المذوقات واصوات المسموعات لا يزول تأثيرها من الذهن حالاً بل يبقى فيهِ مدة طويلة او قصيرة فنتخيلهُ ونتذكرهُ ونتصرف فيهِ على اساليب شتى . فيمكنني ان اجلس في غرفتي في نور النهار او ظلام الليل واتصور شجرة رأيتها منذ سنين عديدة في بلاد بعيدة فترتسم صورتها في ذهني كما ارتسمت حينما رأيتها . واذا كنت مصوراً فقد يمكنني ان اصورها على القرطاس كما هي

ولذلك يمكننا ان نقسم المدركات الى قسمين كبيرين قسم ندرك وجودهُ بتأثيرهِ في

مشاعرنا الظاهرة وقسم ندركهُ بصور ذهنيَّة في اذهاننا

ولا يخفى ان الناس مختلفون اختلافاً عظيماً في قوة ادراكهم سواء كان بالمشاعر الظاهرة او بالحس الباطن حسب دقة مشاعرهم وتمرنها . اذا رأيت مئة من اولاد الزنوج لم يمكنك ان تفرق واحداً عن الآخر في اول الامر بل تراهم كلهم متشابهين في كل شيء . ولكن امهاتهم يرين بين كل واحد وآخر فرقاً شاسعاً . واذا كنت غير معتاد اكل السمك فقد لا تجد فرقاً بين طعم سمك وآخر لكن بعض المتأنقين في المآكل يرون بينها فرقاً واضحاً . وفي على ذلك الصور الذهنيَّة فقد تكون واضحة تمام الوضوح في بعض الناس ومشوشة تمام التشوُّش في غيرهم وقد يحصل فرق كبير في الانسان الواحد نفسهِ من هذا القبيل فان كان يسمع جلبة اولاد وهم يسرُّ بها او لا ينتبه اليها وهو في صحتهِ التامة فقد يتألم منها ويستثقلها وهو مريض واذا كان يأكل طعاماً معلوماً ولا تقزُّ نفسهُ عنهُ وهو سليم فقد لا يقدر ان يذوقهُ وهو مريض وما احسن ما قيل

وتنكر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ ويكرهُ الفمُ طعم الماء من سقمِ

فاذا تهيجت مراكز الدماغ بسبب من الاسباب حتى قوي الخيال وصرنا نرى الصور الذهنيَّة واضحة جدًّا كأنها في الخارج ولم نستطع ان نقنع انفسنا انها خياليَّة صارت من الخيالات الَّتي ذكرنا امثلتها في الجزء الماضي

اما الاسباب الَّتي تهيج الخيال وتقويهِ فمرجعها غالباً الى ثلاثة امور الاول حسب الفكر على موضوع واحد كما يفعل المصورون الذين يمعنون النظر في ما يريدون تصويرهُ ويضعون صورتهُ الذهنيَّة نصب عيونهم فقد قيل عن بعضهم انهم كانوا اذا ارادوا تصوير رجل يتصوَّرون انهُ جالس امامهم فيرونهُ جالساً كأنهُ امامهم حقيقة . ومن هذا القبيل ما يحدث في المسائل الهندسيَّة فاننا قد نبرهن قضاياها من غير كتاب ولا رسم فنتصورها مرسومة امامنا فنراها مرسومة بخطوطها وحروفها كأنها مرسومة حقيقة . والناس مختلفون في قوة التصور هذه اختلافاً عظيماً ولكن بعضهم تبلغ فيهِ القوة ان يرى ما يتصورهُ بكل مزاياهُ رؤية واضحة جدًّا حتى يعتقد بوجودهِ امامهُ حقيقةً

الثاني وجود منبه وقتي ينبه الخيال كما يحدث للتعبين والمحمومين. ذكر الدكتور نيو بولد انهُ كان متعباً ذات يوم مشغول البال فاستلقى في فراشهِ واغمض عينيهِ فرأى صوراً لتخاييل لهُ في الظلام وفيما هو يتأملها سمع طقطقةً عظيمة ورأى صورة منها انارت بنور ساطع ففتح عينيهِ واذا هو باخيهِ قد دخل الغرفة من خلال ستار ياباني مصنوع من قطع من الخشب

منظومة كالمسابح فسمع صوتها الخفيف فاثر في دماغهِ المتعب تأثير الصوت العظيم . وامثلة ذلك كثيرة

الثالث قلة الصور الذهنيَّة حين الانتباه إلى صورة منها فان جلاء الصور يقل بكثرتها ويزيد بقلتها. وقد ابان الاستاذ جمس انهُ اذا ضعف ائتلاف الافكار كثرت الخيالات كما يحدث في الاستهواء والتنويم المغنطيسي كأن الابواب ٱلَّتي تخرج منها الافكار مصارف تصرف منها القوى من الدماغ فاذا سُدَّ بعض هذه الابواب اضطرت القوى ان تتصرف من الابواب الباقية بشدَّة . وهٰذا شأن الانسان في النوم فان المشاعر الظاهرة تتوقف عن عملها واحدًا بعد الآخر فتنصرف قوة الدماغ الى صور الخيال الباطنة فتظهر جليَّا مع انها تكون خفيَّة في اليقظة لتوزع قوة الدماغ عليها وعَلَى المحسوسات . وتكون هذه الصور الخياليَّة عَلَى اجلاها عند اول النوم كأن الانسان يعي الطرف الاخير من المحسوسات فينصب ذهنهُ عليهِ و يوشحهُ بكل صور الخيال

ومَن عانى النظم والانشاء يعلم انهُ اذا اراد الابداع في الوصف اضطرَّ ان يصرف فكرهُ عن المحسوسات حتى لا يعود يعي شيئًا ممَّا يجري حولهُ و يصبهُ على الصور العقليَّة ٱلَّتي في ذهنهِ

والخيالة ٱلَّتي نرى صورتها كأنها شبح قائم امامنا او نسمع صوتها كأنها تتكلم في اذننا قد تكون صورتها واضحة في ذهننا كما هي واضحة امامنا وقد لا نشعر بها الاَّ في الخارج اما لخلل في آلات الحس او لان الوجدان اغضى عن صورتها العقليَّة فنسيها

وللخيالات سبب آخر وهو اختلال الدم الدائر في الدماغ اما في كميتهِ او في كيفيتهِ وقد بسطنا ذلك في المجلد السابع من المقتطف

هذه هي الاسباب ٱلَّتي تعلل بها الخيالات فاذا راجعت الامثلة ٱلَّتي ذكرناها في الجزء الماضي رأيت انها تعلَّل بها ولاسيما السبب الثالث منها

الموت (١)

وقد ترجمت عن الانكليزية بقلم الشاعر المجيد نسيم افندي صبيعة

كم للطبيعة اسلوبًا من الكلمِ ... لدى المناجاةِ عند السامع الفهمِ
آنَ السرورِ تُريهِ من معالمها ... آياتِ حسنٍ وتُبدي ثغرَ مبتسمِ

(1) Thanatopsis by William Cullen Bryant